سلسلة

اللهم قوِّ إيماني

[٥]

جهنم ١٠٠ كيلو متر

تأليف : د. على راشد

ريشة : أسامه أحمد نجيب

دار الفكر العربي

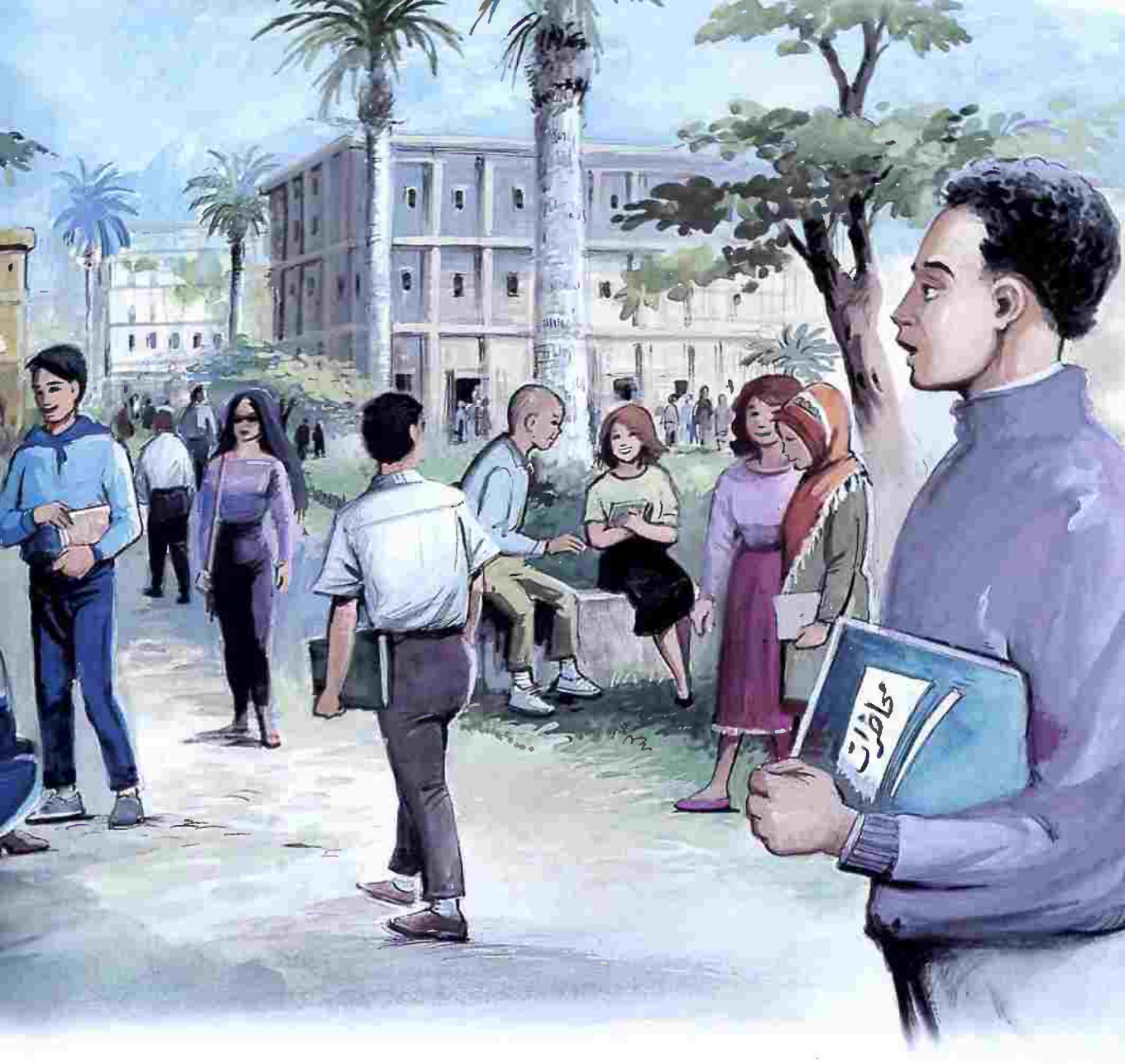
محاضرات

عندما التحق إبراهيم ابن الحاج عبد الرحمن محفوظ بكلية التجارة وترك الحياة الريفية إلى الحياة فى مدينة القاهرة الكبرى: لم يكن يدرى كل هذه الاختلافات بين مناخ البيئة المدرسية التى عاشها طوال حياته، ومناخ البيئة الجامعية. فمن قيود ورقابة منزلية ومدرسية وانضباط والتزام وشهادات مدرسية وتقارير سلوكية يطلع عليها أولياء الأمور، إلى انفتاح متسع وحرية، ومساحات متاحة - زمنية ومكانية - وعلاقات متنوعة مع زملاء وزميلات بعيدة إلى حد كبير عن أية قيود رقابية، ومختفية عن عيون الأسرة والأهل.

كما لاحظ إبراهيم فيما لاحظه فى حياته الدراسية الجديدة اختلافا واضحا بين طبقات طلاب الكلية الواحدة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. بخلاف حياته الدراسية الثانوية فى بلدته التى لم يكن يشعر فيها بتباين ملحوظ، وفروق بين المستويات الطلابية. أما فى الجامعة فالتباين واضح وكبير. والفروق شاسعة، فهناك طالب يأتى بنفس ملابسه المتواضعة

طوال الأسبوع مستقلا إحدى وسائل النقل الشعبية وقد انحشر بداخلها حشرا لا يطاق، ولا يدرى به أحد. ليس لديه صديق إلا من نفس نوعه. يضع كل همه فى دراسته ومذاكرته. وهناك طالب آخر يرتدى أفخر الملابس المستوردة ذات الماركات العالمية. يستقل أحدث السيارات الفخمة المزودة بكل مزايا الرفاهية - فول أوبشنز - يلفت أنظار الجميع، وخاصة الطالبات وجميلات الجامعة.

وكان إبراهيم عبد الرحمن محفوظ من الصنف الأول من الطلاب، وشريف حسان أبو الفتوح من الصنف الثانى، ولم يكن فى تصور إبراهيم بتاتا أنه سيحظى فى يوم من الأيام بأية درجة من درجات الاهتمام، فأين هو منه، فالأسوار عالية، والسدود ضخمة، والمسافات بعيدة، فاكتفى بصداقة زميله مصطفى عبد الخالق، فهو من نفس المستوى الاقتصادى والاجتماعى والثقافى، إلا أن إبراهيم كان يفوقه من الناحية الدراسية.

وكانت أول بارقة أمل يثبت فيها إبراهيم محفوظ كيانه وشخصيته، ويجد من يقدره ويلتفت إليه من زملاء وزميلات الكلية: عندما ظهرت نتائج امتحانات السنة الأولى فكان إبراهيم من أوائل دفعته، وحصل على تقدير «جيد جدا»، وهو تقدير يصعب الحصول عليه من كافة طلاب كلية التجارة إلا من قلة نادرة استثنائية لا يزيد عددها عن أصابع اليد الواحدة.

ومع بداية العام الدراسى الثانى اختلف الوضع كثيرا بالنسبة لإبراهيم محفوظ، فقد عرفه الكثير من الزملاء والزميلات بسبب تفوقه الدراسى، وكذلك لاستقامته ودماثة أخلاقه والتزامه بالسلوكيات الدينية القويمة، فهو يؤدى الصلوات الخمس فى مواعيدها، وعرف عنه

الصدق والوفاء وتقديم المساعدة لكل محتاج إليها.

وجاءت لحظة غيرت من مجرى حياة إبراهيم. فبينما كان يقف فى ساحة الكلية يومًا ما مع زميله مصطفى عبد الخالق يناقشان موضوعًا دراسيًا: إذا بوجيه الكلية المتألق دائمًا شريف أبو الفتوح وفى صحبته - كالعادة - طالبتان من فاتنات الكلية: زيزى ونانى، وقد ارتديتا الملابس اللافتة للنظر غير المحتشمة - والتى تظهر مفاتنهما وانوثتهما الطاغية - وأقبلوا عليه، وبادر شريف إبراهيم بالسلام:

- أهلاً إبراهيم، ما هذا التفوق غير العادى!!

وفى رقة وعذوبة وسلام بالأيدى لم ينسه إبراهيم لعدة أسابيع تحدثت الفتاتان إليه:

- هايْ هيمه .. تقديراتكْ وخاصّة فى المحاسبةِ خياليَّة - فانتاستكْ - وألجمت المفاجأة إبراهيم. هلْ يُعقلُ هذا؟ شريف أبُو الفُتُوح بكلِّ وجاهتهِ، وزيزى ونانى بكلِّ جمالهما وفتنتهما أتوا يخطبُونَ ودَّهُ، ولمْ يستطع الفتى الخجولُ الردَّ مُباشرةً وخاصّةً عندما لمستْ يدهُ يدَ كلٍّ منْ هاتين الفاتنتين، فلا يُمكنُ وصفُ هذا الإحساس، فقدْ سرى فى بدنه كلّه تيّارٌ ليس كتيّار الكهرباء، بلْ تيّارٌ منْ إكسير السّعادةِ الحسيَّةِ الذّى يسْرى بداخلِه لأوّل مرّةٍ فى حياته.

وأخيرًا وجدَ إبراهيمُ بعضَ الكلماتِ التّى يردُّ بها على مُمثّلى الطبقة الراقية بالكليّة. فقالَ بتلعثم:

- شُكرًا يا شريف بيه، هذهِ مُجاملةٌ رقيقةٌ منكِ يا أختُ زينبُ، وأنت يا أختُ نادية..

وضحكت الفتاتان فى دلال على الكلام الساذج المتلعثم لإبراهيم، وقالت زيزى:

- أختك!! أورجينال خالص كلمة أخت ديه يا هيما ..

وانتشى إبراهيم عندما سمع زيزى تحدثه بكل هذا الدلال، وتدلله بـ - هيما - إن فى صوتها موسيقى وألحانا وغناء أجمل عنده من أغانى عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ.

وقال شريف لإبراهيم:

- نحن اعتبرناك من شلتنا يا إبراهيم؛ لذا فنود أن تجلس معنا قبل امتحانات الفصل الدراسى، وخاصة فى مادتى المحاسبة والإحصاء لتركز لنا على الموضوعات المهمة التى من المتوقع أن تدور حولها أسئلة الامتحان ..

ورد إبراهيم فى سعادة بعد دعوة ممثلى الطبقة الراقية أن ينضم إليهم:

- بكل ممنونية يا شريف بيه، إنه ليسعدنى وشرف لى أن أكون بصحبتكم فى أى وقت تشاءون.

وابتسم شريف لإبراهيم قائلا:

- مرسى يا إبراهيم .. هاى

وبنفس الدلال والأنوثة الطاغية قالت الفتاتان:

- هاى هيمه ..

ورد إبراهيم غير مصدق عينيه ولا أذنيه وقال وكأنما قد خدر تخديرا جزئيا:

- هاى ورحمة الله وبركاته ..

ومضى شريف وزيزى ونانى فى طريقهم مبتعدين عن إبراهيم محفوظ وزميله مصطفى عبد الخالق الذى لم يشعر به أحد ولم يسلم عليه أحد. فقد تجاهلوه تماما ..

واقترب مصطفى من زميله إبراهيم المخدر جزئيا وقال:

- ما هذا يا أستاذ هيمه؟ لقد أصبحت من المشهورين. ويقبل عليك الطبقة الثرية من طلاب الكلية وجميلاتها ..

فرد إبراهيم وهو فى غاية النشوة والإحساس بأهميته:

- لمْ أكنْ أتصورْ يا مصطفى أنْ يومًا من الأيّام سيأتى ليتحدث معى شخصٌ فى مثل مكانة شريف أبو الفتوح، أوْ طالباتٌ فى جمال ودلال زينب ونادية. وليس هذا فقط، بلْ يطلبون منّى أنْ أساعدهمْ فى فهم الموادّ الدراسيّة وأسئلة الامتحانات.

فقال مصطفى محذرًا صديقهُ:

- هذا منْ أجل احْتياجهمْ إليْك، أمّا غيرُ ذلك فلنْ يُعيرُوك اهْتمامًا مثلما فعلُوا معى وأنا أقفُ معك.

- وأنا أيضًا فى حاجةٍ إليهمْ ..

- وماذا تحتاجُ منْ مثلِ هؤلاءِ يا إبراهيمُ؟

- أحتاجُ للاقترابِ منْ هذهِ الطّبقةِ منَ البشرِ، لأنعمَ منْ بعضِ ما ينعمُون، ولأسْعدَ منْ بعضِ ما يسعدُون، ألمْ تسمعْ يا مُصطفى المثلَ الشّعبىّ القائل:

«منْ جاورَ السّعيد يسعَد».

وحذّرَ مُصطفى زميلهُ وصديقهُ إبراهيمَ منْ عواقبِ علاقاتهِ بمثلِ هذهِ الطّبقةِ، وقالَ لهُ: ألمْ تسمعْ أنتَ المثَلَ الشّعبىَّ القائلَ:

«منْ برّه هلّه هلّه .. ومنْ جوّه يعلَم اللّه».

ولكنْ إبراهيمُ لمْ يأخُذْ بنصيحةِ صديقهِ، وجاورَ «شلّة» شريف أبْو الفتوح، وتنعّم ببعضِ ما يتنعّمونَ منْ ركوبِ أفخمِ السيّارات، وارتيادِ أفضلَ وأرقى الأماكن، وتناوُل أشهى الأطعمة فى أفْخرِ المطاعمِ، ومُصاحبةِ أجملِ الفتيَات، وجميعُ الفواتيرِ مدفوعةٌ كاملةً من قبل شريف بك

الذى يقومُ بالصرف على «الشلّة» ببذخٍ ملحوظٍ وكأنَّهُ يمتلكُ بنكا خاصًا لا تنضبُ مصادرُهُ نهائيا. وكان إبراهيمُ يحدثُ نفسهُ وهُو يتنعمُ بكلُ هذهِ الملذّاتِ قائلا:

- تعالىْ يا أمَّ إبراهيم وأنت يا حاجَ عبدَ الرحمنِ لترَيا العزَّ والهنا والسَّعادةَ التى يَعيشُ فيها ابنُكما ..

وبذل الفتى قُصارى جهدِه - وخاصَّةً فى أثناءِ الامتحاناتِ - ليقُومَ بواجباتهِ التّعليميّةِ نحوَ أصدقائهِ الأثرياءِ، وليبقى على الدّوامِ المرشدَ الدراسيَّ لهُمْ، حتّى لا يستغْنُوا عنْ خدماتهِ، ويَبقَى هُوَ دائمًا فى إطارِ النعمِ الحسّيّةِ التى لا يستطيعُ الاستغناءَ عنهَا.

وانتهتِ الامتحاناتُ وظهرتِ النّتائجُ، وبالفعلِ نجحَ الجميعُ - بتقديراتٍ مُتفاوتةٍ - وانتقلوا إلى السّنةِ الثّالثةِ - دُونَ مَوادَّ تخلّفٍ لأوّلِ مرّةٍ - وزادَ ذلكَ منْ سَعادةِ

إبراهيم محفوظ فلقد أثبت وجوده، وأكد قدراته على دفع المجموعة دراسيًا إلى الأمام، إذن فلن يستغنوا عنه ولا عن خدماته. هكذا أقنع إبراهيم نفسه، إنهم منظومة متكاملة، حيث يمثل شريف المال، ويمثل هو العلم، بينما زيزى ونانى تمثلان الجمال والدلال. فما أروعه من تكامل يجعل الحياة تسير إلى الأمام فى متعة وسعادة.

وشيئًا فشيئًا تغيرت حياة إبراهيم محفوظ، فقل التزامه بحضور المحاضرات، وهو الذى لم يتأخر عن حضور أية محاضرة فى أية مادة دراسية. كما قل التزامه فى أداء عباداته، وهو الذى كان لا يؤجل أية صلاة إلى ما بعد موعدها، فها هو يجمع عدة صلوات فى وقت واحد، ولقد تعود على التدخين - كما يفعل شريف أبو الفتوح - بل وتخطى هذه المرحلة إلى مرحلة تعاطى بعض المخدرات تمشيًا مع سلوكيات «الشلة»، واستباح لنفسه مجالسة الفتيات وارتكاب بعض المحرمات مع بعضهن، تلك المحرمات التى لم تكن تخطر على باله فى الزمن السابق.

وها هو يشارك شريف أبو الفتوح وفادى البدرى - أحد الأصدقاء الأثرياء - سهراتهما الماجنة فى الكازينوهات والبارات، وكان إبراهيم يلوم نفسه ويبدى ندمًا على كل ما يفعله، وفى كل تقصير يقصر فيه فى حق دراسته أو عبادته لله عز وجل، ولكن سرعان ما ينسى هذا اللوم وذاك الندم إذا ما اجتمع مع أصدقاء السوء، وشلة الغواية.

ورفع اسم إبراهيم من قائمة التفوق، وابتعد عنه صديقه الوفى مصطفى عبد الخالق الذى حل محله فى هذه القائمة، وكلما تقابلا صدفة فى الكلية: نظر إليه مصطفى نظرة يقول له فيها: ألم أحذرك من مغبة هذا الطريق ..

فيرد عليه إبراهيم بنظرة منكسرة يقول له فيها:

لو كنت أعرف أن البحر عميق جداً ومظلم بهذا القدر ما كنت أبحرت .. لكنها الأقدار ..

وكأن الفتى قد وقع فى شبكة شيطانية جهنمية لا يستطيع الفكاك منها. ولا يقدر على التخلص من خيوطها العنكبوتية التى التفت حوله، واستحكمت عقدها. وكثيراً ما رأى فى منامه والده الشيخ عبد الرحمن محفوظ وهو يلومه على ما هو فيه. ويحذره من عواقب هذا الطريق، ويسدى إليه النصح ليعود من طريق الضلال هذا إلى طريق الهدى والرشاد. فيقوم من نومه وهو فى حالة شديدة من الضيق والألم والإحباط، وسرعان ما يتناسى كل هذا عندما يجتمع بشلة الضياع.

وفى إحدى الليالى اجتمع الأخلاء كعادتهم: شريف أبو الفتوح وفادى البدرى وإبراهيم محفوظ، ومعهم الرفيقات الجميلات المبتذلات: زيزى ونانى ومرمر (مريم) فى سهرة حمراء داخل إحدى علب الليل بشارع الهرم، وبعد العشاء المتضمن أشهى المأكولات، وأغلى الخمور بدأت وصلات الرقص والغناء الهستيرى لهؤلاء الشباب وتلك الفتيات، واستمر هذا الحال إلى ما بعد منتصف الليل، وإذا بالزعيم شريف أبو الفتوح يصيح فيهم فى سعادة وقد لعبت الخمر برأسه قائلاً:

- إخوانى ..

فصاح الجميع فى ضحك هستيرى:

- هيه ..

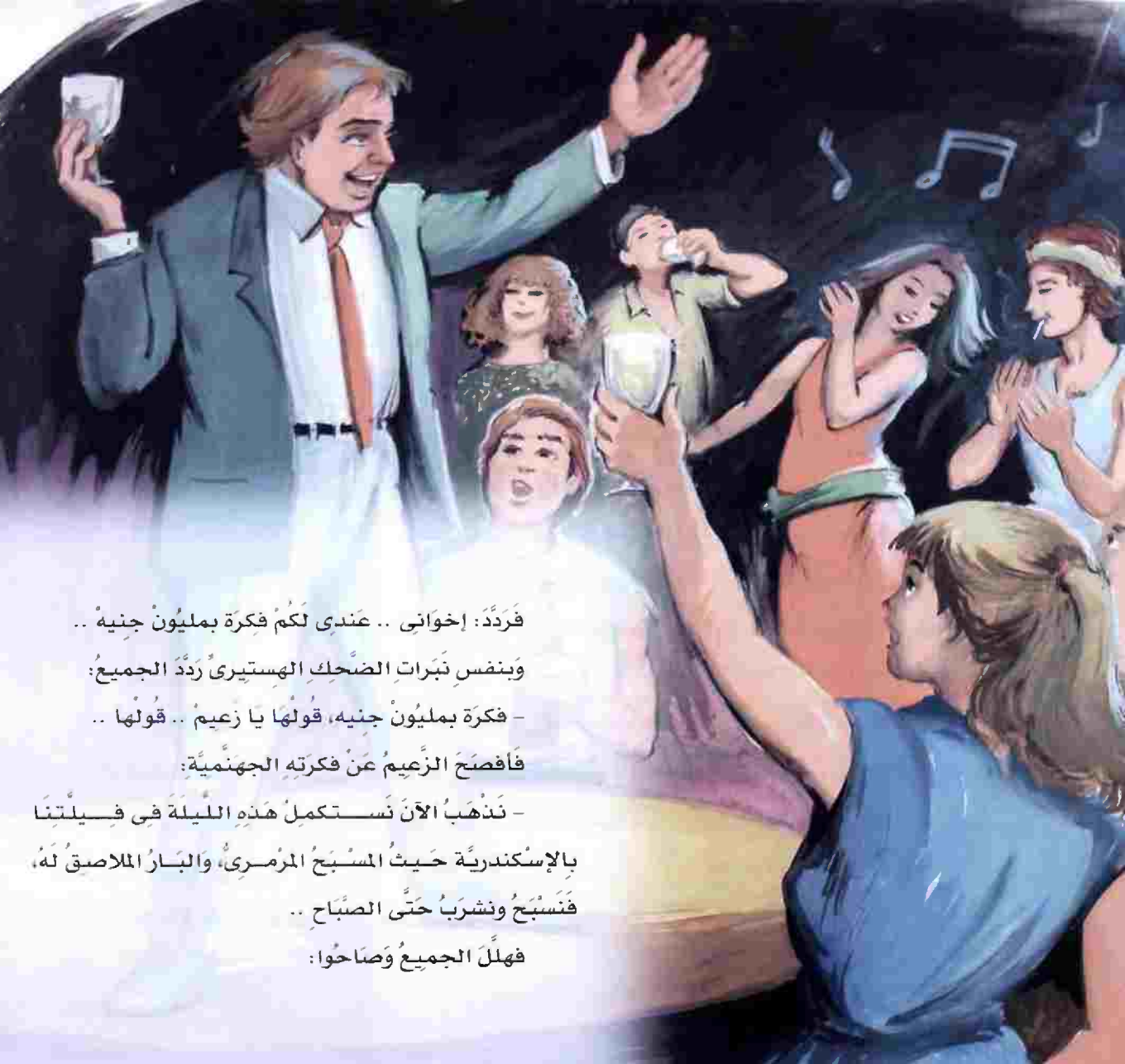

فَردَّدَ: إخوانى .. عندى لكُمْ فكرةٌ بمليُونْ جنيهْ ..

وَبنفسِ نبَراتِ الضَّحكِ الهستيرىِّ ردَّدَ الجميعُ:

- فكرةٌ بمليُونْ جنيه، قُولْها يا زعيمْ .. قُولْها ..

فأفصحَ الزَّعيمُ عنْ فكرتِه الجهنَّميَّةِ:

- نذْهبُ الآنَ نستكملُ هذهِ اللَّيلةَ فى فيلَّتِنا بالإسْكندريَّةِ حيثُ المسْبحُ المرْمرِىُّ، والبارُ الملاصِقُ لهُ، فنَسْبحُ ونشربُ حتَّى الصَّباحِ ..

فهلَّلَ الجميعُ وصاحُوا:

- فكرة هايلة يا زعيم .. إلى الإسكندرية .. إلى الإسكندرية..

وهنا صاح إبراهيم:

- ولكننا ليس لدينا الآن ملابس الاستحمام ..

فضحكت زيزى وقالت فى دلال فاجر بعد أن أعدمت حياءها:

- يا هيما .. ما هذه السذاجة .. هناك لسنا بحاجة إلى أية ملابس ..

وضحك الجميع وهتفوا:

- إلى الإسكندرية .. إلى الإسكندرية ..

وركب الجميع سيارة شريف أبو الفتوح الفاخرة، والتصق الشباب الماجن بالفتيات المستهترات داخل السيارة، وهم يمنون أنفسهم بليلة شيطانية داخل فيلا زعيمهم شريف. وانطلق هذا الزعيم بسيارته فى سرعة جنونية فى الطريق الصحراوى الذى يربط بين مدينتى القاهرة والإسكندرية، وساعد فى زيادة هذه السرعة الوقت المتأخر من الليل وندرة السيارات المتجهة إلى الإسكندرية.

وكان مقعد إبراهيم محفوظ فى الأمام بجوار باب السيارة الأيمن وبجواره وملتصقة به تماما الفتاة مرمر، بينما يجلس فى الخلف فادى، يتوسط كلا من زيزى ونانى. والجميع فى همس وضحك ونشوة. وبعد دقائق ظهرت لوحة زرقاء كبيرة على يمين الطريق كتب عليها بخط كبير وواضح:

- الإسكندرية ٢٠٠ كيلو متر.

وهنا صرخ إبراهيمُ قائلاً بجديَةٍ وبطريقةٍ مفاجئةٍ:

- هلْ ترونَ ما أراهُ؟

وأزعجت الصرخةُ الجميعَ، فصمتوا تماماً عن الكلامِ والهمسِ.

وقال شريف:

- ماذا ترى يا إبراهيمُ؟ ولماذا تصرُخُ هكذا؟

وبنفس الجديَةِ والانزعاج صاح إبراهيمُ:

- اللوحةُ الزرقاءُ التى كانتْ على جانبِ الطريقِ !!

أرأيتمْ ما المكتوبُ عليها؟

فقال شريف:

- اللوحةُ الزرقاءُ مكتوبٌ عليها: الإسكندريَة ٢٠٠ كيلو متر..

فردَ إبراهيمُ بكلِ جديَةٍ نافيًا كلامَ شريف:

- لا يا شريف .. اللوحةُ الزرقاءُ مكتوبٌ عليها جهنَم ٢٠٠ كيلو متر.

وكأنَ إبراهيمُ قدْ فجَرَ أكبرَ نكتةٍ سمعتْها الشلةُ هذا العام، فضحكوا جميعًا بصورةٍ هستيريَةٍ عاليةٍ، وصاح شريف ضاحكًا:

- إبراهيمُ أُصيبَ بحولٍ فى عينيْه، فهو يرى الجنَةَ التى نحنُ متجهونَ إليها جهنم ..

واستمرَ الجميعُ فى ضحكِهمْ إلا إبراهيمَ، فلقدْ رأى اللوحةَ الزرقاءَ بوضوحٍ، مكتوبٌ عليها جهنَمُ ٢٠٠ كيلو مترٍ، وليسَ الإسكندريَةَ .. وتساءلَ بينهُ وبينَ نفسهِ: أيكونُ ما احتساهُ منْ خمرٍ

جعلهُ يرى الكلمات على غير صحّتها؟ نعمْ .. نعمْ إنها هى الخمرُ اللّعينة، وأقنع الفتى نفسَهُ بهذا التّفسير، فضحك على ما حدث، وعلى تعليقات الآخرينَ على ما رأى ..

واستمرَّ الركْبُ مُنطلقًا بسرعته الهائلة يُسابقون الزّمنَ إلى حيثُ المتعة المحرّمة، وهُمْ يُغنُّون ويتحدّثون ويتهامسون ويضْحكون .. واقتربتْ لوحةٌ زرقاءُ أخرى على جانب الطّريق تُعلنُ عن المسافة المتبقّية على مدينة الإسكندريّة. وصرخ إبراهيمُ مرّةً أُخرى أفزعتْ كلّ منْ معهُ للمرّة الثانية قائلاً:

- أهه .. أهه .. اللّوحةُ الزّرقاءُ مكتُوبٌ عليها: جهنّمُ ١٥٠ كيلو مترا .. ألا ترون؟ ألا تقرءُون؟

وهُنا قالت الفتاةُ التى تُجاورُهُ ريرى وقدْ أزعجها صُراخُ جارها:

- على ما يبدُو أنَّ هيما أصابتْهُ لوثةٌ عقليّةٌ .. ياهيما يا حبيبى ما هُو مكْتُوبٌ على اللّوحة الزرقاء الإسكندريّة ١٥٠ كيلو مترا، منْ أين أتيتَ بكلمة جهنّمُ هذه .. يا حفيظ يا رب..

فردَّ عليْها إبراهيمُ بكلّ جديّةٍ وصدقٍ فى الحديث:

- أُقسمُ باللّه يا جماعة أنا لا أمزحُ، بلْ أقُولُ ما رأيتُ بالفعْل، أنا لا أرى كلمة الإسكندريّة، بلْ أرى كلمة جهنّمْ .. لماذا لا ترونَ ما أرى؟

وساد الصمتُ والوجومُ الجميع وكأنَ على رؤوسهمُ الطيْر. وتشاءموا منْ هذهِ الكلماتِ التى تفوه بها صاحبُهُم..

وقال فادى بعد برهة:

- يبْدُو أنَ إبراهيم يُريدُ أنْ يُصيبنا جميعًا هذه الليلة بالنكد، ويقضى على مزاجنا العالى (وصاح هاتفًا) فليحيا المزاجُ ..

وردَد الجميعُ وراءهُ الهتاف: فليحيا المزاجُ ..

وأكمل: ولتحيا الفرفشة ..

وردَدُوا : ولتحيا الفرفشة ..

- وليسْقطِ الغمُّ والهمُّ ..

- وليسقُطِ الغمُّ والهمُّ ..

ومرةً أُخرى تغلَبَ الرفقاءُ على جوِّ الخوفِ والتشاؤُم الذى أشاعهُ صاحبهمُ إبراهيمُ بهذهِ الأوْهام والخزعْبلات، وأخذُوا يتغنون مرةً أُخرى ويتحدثُون ويتهامسُون ويتضاحكون..

وأصرَ إبراهيمُ أنْ يتحدَى نفْسهُ، وأنْ يكشفَ سرَّ ما يَراهُ هو ولا يراه أصحابُهُ. فانتظر محدقًا بكلِّ تركيزٍ على اللوحاتِ العديدةِ المثبتةِ على الجانبِ الأيمن من الطريق ومعظمُها إعلاناتٌ عنْ مؤسَسات وشركاتٍ وبنوكٍ وسلع ..

وفجأةً اقتربتِ اللوحةُ الزرقاءُ الثالثةُ التى ينتظرُها إبراهيمُ ليتأكدَ منْ أنَ ما يُبصرُهُ أهُو حقيقةٌ أمْ أوْهامٌ سبَبتْها لهُ الخمرُ التى لعبتْ برأسهِ.

وجاءتْ الكلماتُ المكتُوبةُ أمامَ عينىْ إبراهيمَ لا تقبلُ الشَّكَّ أو المجادلة. فقدْ رأى بعيْنِ رأسه على اللوحة الزرقاء: «جهنَّم ١٠٠ كيلو متر» وهُنَا صاح بصوْتٍ عالٍ وبلهجةٍ آمرةٍ مُخيفةٍ:

- قفْ يا شريف .. أوقف السيارةَ حالاً ..

وأخاف هذا الصُّراخُ الزعيم شريف، فأوقف سيارتهُ فورًا استجابةً لأمْرِ إبراهيمَ الذى فتحَ باب السيارة المجاور له ونزل منها. وهُنَا أشارَ شريف لأصْحابه إشارةً بيْنَ فيها أنَّ إبراهيمَ فى حالةٍ عقليةٍ غيرِ سويةٍ، ومنَ الأفْضلِ عدمُ السُّخْريةِ منهُ.

وقالتْ نانى فى توسُّلٍ:

- إلى أيْنَ تذْهبُ يا هيما؟

ردّ عليها الفتى وهو فى غاية الاضطراب:

- سأعود إلى القاهرة ..

- ولكننا فى عز الليل ..

- هذا لا يهمّ .. سأحاول إيقاف أية سيارة ذاهبة للقاهرة ..

- ولكننا نود أن تكون معنا فى هذه الليلة ..

- أعتذر فإننى فى حالة نفسية سيئة لا تسمح لى بذلك ..

واقتنع الجميع بترك إبراهيم لهم نظرًا للتغيُّر المفاجئ الذى حدث له، وخاصة بعد أن سبّب لهم حالة من الانزعاج والتشاؤم، فليرحل عنهم كى لا يفسد عليهم ليلتهم ..

وتحركت السيارة تاركة الفتى فى هذا الليل البهيم، وسمعهم وأصواتهم تبتعد عنه وهم على حالتهم من الصراخ والغناء والضحك حتى اختفت الأصوات من أذنيه، واختفت السيارة عن عينيه، وصار بمفرده على قارعة الطريق، وشعر براحة نفسية كبيرة بعدما ترك صحبة السوء هذه، وأخذ نفسًا عميقًا من هواء الصحراء النقى ليستعيد به حيويته ونشاطه النفسى، وانتقل فى هدوء وبطء إلى الناحية الأخرى من الطريق الذى يؤدى إلى القاهرة، ووقف ينتظر مرور أية سيارة من أى نوع تنقله معها إلى حيث بلده ومسكنه، وندرت السيارات التى تمر فى هذه الساعة المتأخرة من الليل، وحتى التى كانت تمر من سيارات «ملاكى» أو «أجرة» أو «نقل» كانت لا تستجيب للإشارات التى يشير بها إبراهيم بيده لهم.. وتعب من الوقفة ورفع يده،

فجلس على الأرض ليأخذ قسطًا من الراحة. وأخذ يفكر فيما حدث له. ما هذا الذى رآه هو ولم يرد الآخرون؟ بل ابتعد بفكره إلى أبعد من ذلك. فتساءل: ما الذى أصابه فى طريق حياته. لقد كان مستقيمًا فى كل شىء. فإذا به ينحرف ويفقد كل شىء: التفوق الدراسى. والحياة السوية. والالتزام الدينى. والسبب فى كل ذلك انضمامه لهذه الزمرة الفاجرة غير الملتزمة سلوكيًا وأخلاقيًا ودينيًا.

وتمتم بينه وبين نفسه:

- ينبغى أن أعود إلى الطريق الصحيح الذى كنت أسير فيه. وأبتعد عن هؤلاء الفجرة الذين قلبوا موازين حياتي، وأبتعد عن كل ما كنت أفعله معهم، وأعود إلى التزامى الدينى وتفوقى الدراسى.

وغلب عليه التعب والإرهاق النفسى والبدنى، وأتاه النعاس وهو فى جلسته هذه فنام وهو بحالته هذه، ولم يدر عندما مال بجسمه إلى الأرض وفرد ساقيه وكأنه على سريره، واستمر فى حالته هذه حوالى ساعتين وقد بدأ الفجر يشق بأنواره الخافتة ظلمة الليل.

ولم ينتبه الفتى إلا بعد أن هزته يد خشنة، وسمع صوتًا غليظًا أجش من سائق سيارة نقل تحمل شحنة من الأخشاب وهو فى العقد السابع من عمره قائلاً:

- إنت يابنى .. إنت يا حضرة.

وقام إبراهيم مفزوعًا من نومه، وهو لا يدرى أين هو؟ ومن هذا الذى يوقظه من نومه فى هذه الساعة من الليل قائلاً: من؟ من أنت؟

فرد السائق بنفس الصوت الأجش مستنكرا تساؤلات الفتى:

- من أنا !! أنا الأسطى توفيق العربى سائق سيارة النقل هذه. والآن من أنت؟ ولماذا تنام هكذا على قارعة الطريق؟

فرد الفتى بعد أن اطمأن إلى حد ما:

- أنا إبراهيم عبد الرحمن محفوظ. طالب بكلية التجارة. وكنت منتظرا لأى سيارة تذهب بى إلى القاهرة. ولم أفلح لفترة طويلة فى تحقيق غرضى. فتعبت وجلست على الأرض. وغلبنى النوم فنمت ..

قال الأسطى توفيق بعد أن اطمأن هو أيضا لهذا الشاب الممدد على الأرض:

- إذن قم من رقدتك هذه. وسأقوم أنا بهذه المهمة وأوصلك إلى القاهرة ..

وشكر الفتى السائق على حسن صنيعه. وركب بجواره داخل كابينة السيارة الضخمة التى انطلقت فى طريقها إلى القاهرة. وساد الصمت بينهما فترة ليست بالقصيرة. وكانت المفاجأة التى أذهلت إبراهيم عندما رأى لوحة زرقاء على جانب الطريق مكتوبا عليها بوضوح:

«القاهرة ١٢٠ كيلو متر».

فصدرت منه آهة لم يتحكم فيها وتمتم فى نفسه قائلا: سبحان الله العظيم ..

فاستفسر الأسطى توفيق عما به فقال له: لا شىء ..

وهنا صرح له السائق عن شىء كان فى صدره قائلا:

- لا أخفى عليك القول يا إبراهيم يا ولدى.

فلقدْ ظننتكَ فى رقدتك هذه أنك جثةُ قتيلٍ
ألقى بها أحدهمْ منْ سيارته ..
فتبسمَ الفتى وقال:
- الحمدُ لله يا عمَ توفيق أنى حىٌّ أرزقُ ..
فقال توفيقُ مبتسمًا:
- إذا كان ما كنتُ أتوقعهُ صحيحًا
- لا قدرَ اللهُ - كنتُ سأعتبرُ هذه الليلةَ
هى أقسى الليالى التى مرَّتْ علىَّ زعبًا
لفترة أربعينَ عامًا هى فترةُ اشتغالى سائقًا ..
ومنْ بابِ الفضولِ وحُبِّ الاستطلاعِ سألهُ إبراهيمُ:
- كيفَ هذا؟
فأجابَ السائقُ بتأثرٍ شديدٍ:
- بعدَ أنْ خرجتُ منْ بوابات الإسكندريةِ بقليلٍ كانتْ هناك سيارةُ نقلٍ بمقطورةٍ تحملُ حديدًا مُسلحًا على يسارى، وبعد دقائقَ لاحظتُ أنَّ سائقها يُعطى إشارة يسارٍ حيثُ سيقطعُ الطريقَ على السيارات القادمة منْ ناحيةِ القاهرةِ والمتجهة إلى الإسكندرية، ولمْ يكنْ هناك أىُّ توقعٍ لقدومِ سياراتٍ، فالطريقُ كانَ خاليًا تمامًا .. وما هىَ سوى لحظاتٍ حتى سمعتُ دويًا هائلا نجمَ عن اصطدامِ سيارةِ ملاكى آتيةٍ بسرعةٍ صاروخيةٍ بالسيارةِ النقلِ ذات المقطورةِ والتى

تحملُ الحديد المسلّح، فانفجرت السيّارةُ الملاكى واشتعلتْ فيها النيرانُ بصورةٍ سريعةٍ جداً، وحاولنا نحنُ الموجُودين فى مكان الحادث مُحاصرةَ النيران بأجهزةِ الإطفاء التى معنا ونجحْنا ولكنْ بعد فترةٍ من الزمن كان قضاءُ اللّه قدْ نفذ فى جميع ركّاب السّيارة التّى احترقتْ بالكامل، بلْ واخترقتْ أسياخُ الحديد كافّةَ جوانب السّيارة، وصعُبَ علينا أنْ نُخلّصَ جُثث الضّحايا منْ هذه الأسياخ، لقدْ ماتوا جميعًا موتةً رهيبةً .. لقدْ كانُوا خمسةً من الشباب شابّين وثلاث فتيات.

وهُنا صرخ إبراهيمُ قائلا: مَاذا تَقُولُ .. شابّيْنِ وثلاث فتَيات!!

واستعجبَ الأسْطى توفيقُ منْ هذا الصُّراخُ وقالَ : نعَمْ يا ولَدى ..

وعندما استفْسرَ إبراهيمُ منهُ عنْ نوع السّيارةِ ولونها وأرقامها تأكّد تمامًا أنَّهُمْ صحبتُهُ، صُحبةُ السُّوء، وكانَ منَ المفترض أنْ يكونَ معَهُمْ، وهُنا أدركَ إبراهيمُ محفوظ سرَّ رُؤيته للّوحاتِ الزّرقاءِ المكتوب عليْها «جهنّم ٢٠٠، ١٥٠، ١٠٠ كيلو متر» واستغفرَ اللّهَ العظيم، وبكى بكاءً مُرًا، ولَمْ يستطعْ أنْ يُجيبَ عَن استفسارَاتِ الأُسْطى توفيق عنْ علاقته بهذا الحادث، وكلُّ ما كانَ يفكّرُ فيه أنّ اللّهَ - عزّ وجلّ - أعطاهُ فرصَةً جديدةً للحياةِ ليتُوبَ ويعُودَ إلى استقامته الأُولى وسألَ نفسَهُ:

أتكُونُ هذهِ الفُرصَةُ بسبَبِ أعمَالِهِ الصّالحَةِ السّابقَةِ، أمْ بسببِ دُعاءِ الوالديْن لهُ، أمْ لأنَّ اللّهَ كتبَ فِى أمّ الكتَاب أنّه سَيكونُ سعيداً وليسَ شقيًا؟

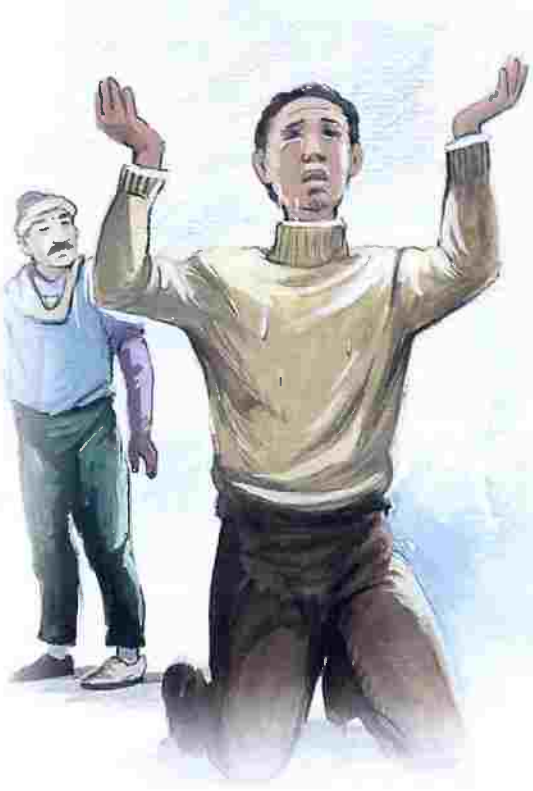

ولمْ يدرِ أيةَ إجابةٍ صحيحةٍ لسؤالهِ:

وأخذ الفتى يدعو ربَّهُ والدموعُ تنهمرُ من مُقلتيهِ قائلا:

«اللَّهمَّ أنتَ ربِّى لا إله إلا أنتَ، خلقْتَنى وأنا عبدُك وأنا على عهدِك ووعدك ما استطعْتُ، أعُوذُ بكَ منْ شرِّ مَا صنَعْتُ، أبوءُ لك بنعمتك علىَّ، وأبوءُ بذنْبى فاغْفرْ لى فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوب إلا أنْتَ».

وعادَ إبراهيمُ ابنُ الحاجِّ عبدالرحمن محفوظ إلَى استقامته الأولى، وإلَى تفوقه السَّابق، وإلَى صديقه مُصطفى عبد الخالق، ولكنَّهُ لمْ ينْسَ طوالَ حياته هذا الدَّرْسَ القاسىَ.

اللَّهمَّ قوِّ إيمانى.